الخلود الكلكامشي في الشعر العربي الحديث

الباحثة اسراء خلف اكريم **أ. د علي عبد الرزاق حمود**

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية - ادب

الملخص:

تشغل مسألة الخلود المساحة الأهم في ملحمة كلكامش؛ لأنها أكبر هدف يسعى وراءه بطلها وهو الخلود بمعناه الحيوي، ولكن ذلك من نصيب الالهة حصرا من دون غيرها- في الملاحم والاساطير- بطبيعة الحال، فدفع ذلك بطلها للرحيل بحثا عن خلوده عن طريق عشبة من شأنها ان تمده به، ومادام يتمتع بتكوين خارق هو النصفية المقسمة بين الآلهة والبشر؛ لأنه نصف إلهي ونصف بشري، فدفعه الطموح للبحث عما يضمن خلوده بحكم كونه من نصف خالد، وذلك ما استلهمه الشعراء العراقيون ، ويظهر ان استلهامهم يتفاوت بين الجودة والفتور من حيث قدرة الشعراء على استيحائه بطريقة غنية فنيا من حيث المضمون والشكل والطريقة التي يسلكها الشاعر في العصر الحديث.

الكلمات الافتتاحية (الخلود، ملحمة، كلكامش، الشعر)

Abstract

The issue of immortality occupies the most important space in the Epic of Kalkamsh, because it is the biggest goal pursued by its hero, immortality in its vital sense, but that belongs exclusively to the gods - in epics and legends - of course, and this prompted her hero to leave in search of For his immortality through a herb that would extend it, and as long as he enjoys a supernatural composition is the half divided between gods and human beings, because he is half divine and half human, he was driven by ambition to look for what guarantees his immortality by virtue of being half-immortal, and that Inspired by Iraqi poets, their inspiration varies between quality and infatuation in terms of the ability of poets to inspire it in an artistically rich way in terms of content, form and the way the poet behaves in modern times .The issue of immortality occupies the most important space in the Epic of Kalkamsh, because it is the biggest goal pursued by its hero, immortality in its vital sense, but that belongs exclusively to the gods - in epics and legends - of course, and this prompted her hero to leave in search of For his immortality through a herb that would extend it, and as long as he enjoys a supernatural composition is the half divided between gods and human beings, because he is half divine and half human, he was driven by ambition to look for what guarantees his immortality by virtue of being half-immortal, and that Inspired by Iraqi poets, their inspiration varies between quality and infatuation in terms of the ability of poets to inspire it in an artistically rich way in terms of content, form and the way the poet behaves in modern times.

Keywords: (Eternity, Epic, Kalkamsh, Poetry)

المقدمة:

تحتل مسألة الخلود والبقاء المساحة الأهم في ملحمة كلكامش؛ لأن أكبر هدف يسعى وراءه بطلها هو الخلود بمعناه البايلوجي الحيوي الذي يُقدّر للإنسان للعيش من دون موت، ولكن ذلك من نصيب الآلهة حصراً من دون غيرها-في الملاحم والأساطير- بطبيعة الحال، فدفع ذلك بطلها للرحيل بحثاً عن خلوده عن طريق عشبة من شأنها أن تمده به، ومادام يتمتع بتكوين خارق هو النصفية المقسمة بين الآلهة والبشر؛ لأنه نصف إلهٍ ونصف بشري، فدفعه الطموح للبحث عما يضمن خلوده بحكم كونه من نصف خالد.

فطفق يبحث عن خلود مادي بالجسد بعد أن رأى فاجعة موت أنكيدو صديقه وصار يهيم في الصحاري والذي أراد صاحب الملحمة أن يكون التصعيد المسوغ لما سيقوم به لاحقاً فيفكر بطريقة مختلفة بعد هربه من منظر الجثة الذي يذكره بالفناء[١].

وبطبيعة الحال توجد دوافع أخرى تدفعه لرحلة البحث عن خلوده شأنه شأن أي ملك أو حاكم يطمح بالبقاء لأطول مدة ممكنة وسؤاله لصاحبة الحانة سيدوري عن كيفية خلوده ولكنها تنفي كل ما يفكر به وتصدمه باستحالة ذلك، وكذلك خلال حديث أُوتونابشتم مع كلكامش عند إجابته عن سر بقائه في اللوح الحادي عشر للملحمة[٢].

المبحث الأول: استلهام الخلود في ملحمة كلكامش

يظهر أن هنالك مجموعة عوامل مجتمعة قادت إلى القضية الرئيسة للملحمة التي تناولها الشعراء، فنفاه بعضهم عن الوجود من خلال عدم وجود العشبة المزعومة، يقول باسم فرات[٣]:

قلتُ لكَ: إن العشبة كذبة يا كلكامش
...ولإنَّ السفر خطوُكَ المتكررُ
لماذا تمضي إذن؟!

فيلبس لباس الواعظ المعاتب الذي ينطلق من كونه متأكداً من عدم وجود عشبة الخلود ولم يراعِ الفرق بين الزمنين: زمنه وزمن كلكامش الذي يقبع في تضاعيف أزمان طفولة الشعوب البدائية التي تخلق الأسطورة -غالبا- لتطمئن بمعرفة علة الأشياء المحيطة بهم في الكون وسرها، والملحمة لكي تخلّد إبطالها الذين لا ينتظرون وعظاً وإنما يقدمون وعظهم من خلال أفعالهم البطولية، وربما هنالك متسعٌ لتقديم النصيحة والعتاب من خلال كون كليهما رحّالة جوّاباً بمقادير مختلفة؛ فكلكامش راحلٌ نحو المجد والخلود والبحث عن عشبته، وباسم فرات جوّابٌ في البلدان التي زارها وتأثر بثقافاتها ورموزها وعاداتها[٤]، لكنه يتخلى عن كلكامش في نصه الآخر(إلى لغة الضوء أقود القناديل)[٥] فيصبح هو الجوّاب بقوله:

غير عابئ بالخلود
غير عابئ بالأفول أيضاً
. . . .أخمش الآفاق وأمضي
أنا جنّة نفسي وقيامتها

يستعمل الشاعر تقنية التكثيف الدلالي عبر تكرار عبارته (غير عابئ)، وفيها تتحوّل ثنائية ضدية(الخلود/ الأفول) إلى ثنائية أخرى، تتناظر فيها المتضادات لتكون بنية دلالية واحدة، تكشف شعور اللامبالاة الذي يسيطر على الشاعر، لكنه الشاعر تنازعه أناه، فيعود إلى ممارسة السلطة إذ تتبدّل عنده الصورة الأولى إلى صورة أخرى جديدة، يحاول فيها الشاعر خلق عالمه الجديد المرتكز على الأنا المضخمة، في سياق يرتكز فيه على بنية التشخيص فيجعل للأفق جسداً يحفر عليه أثره، فتتصاعد الأنا إلى أن يجعلها (جنة/ قيامة).

مما يميّز هذا النص، أن الشاعر يعمد إلى هندسة ألفاظه هندسة دلالية، فيجعل الخلود مقابلاً للجنة، والأفول مقابلاً للقيامة، وهو وإن بدا في بنية النص السطحية شعور اللامبالاة لديه واضحاً، فالنص في بناه العميقة يكشف عن رغبة عارمة بهذه الثنائية، لكنه يجعل من نفسه مركزها، وفضاءها المكاني. فتتوالد للمتلقي صورتان في النص: صورة كلكامش وهو يبحث عن الخلود، وصورة الشاعر وهو غير عابئ به في النظرة الأولى، بينما تشي النظرة الفاحصة بصورة متطابقة مع صورة كلكامش.

---

[١] ينظر ملحمة كلكامش النص من فكرة الخلود الى محنة الموت، إبراهيم سبتي، موقع الحوار المتمدن على الرابط https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=65991 بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٢.

[٢] ينظر ملحمة كلكامش، د. طه باقر:١٥١-١٥٢وما بعدها.

[٣] أشدُّ الهديل(شعر)، باسم فرات ،صهيل للانباء والنشر، القاهرة ، ط٢، ٢٠١٧: ٧٧.

[٤] ينظر :مخصبات حضور المكان في شعر باسم فرات، د. حسن غانم فضالة الجنابي، والباحثة هديل ياس عبد حمزة، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع٤١، كانون الاول٢٠١٨، ١٦٠٦.

[٥] خريف المآذن (شعر)، باسم فرات، صهيل للأنباء والنشر،القاهرة، ط٢، ٢٠١٧، ١٣.

ويسير خليل الاسدي مستلهماً عملية استحالة الخلود منذ البداية في قصيدته(الحانة)[٦] التي استقى ثرياها من (حانة سيدوري) في الملحمة، متسائلاً عبر امرأة الحانة التي يكرر نداءها أربع مرات في مطالع من مقاطعه بعد أن وضع عتبة لنصه من الملحمة ((آه لقد غدا صاحبي تراباً)) من خطاب كلكامش إلى امرأة الحانة، و((إلى أين تسعى يا كلكامش إن الحياة التي تبغي لن تجد)) من خطاب امرأة الحانة إلى كلكامش، بقوله:

(٢)
إلى أينَ أسعى
وقدامي الصخر
والسفرُ الموتُ
والآيةُ الخمرُ
كيفَ أشتهيتك لكنني ما وجدتكِ إلا تراباً!!

يتخذ الشاعر من نص الملحمة عتبة إستهلالية يفتتح به سياقه الشعري، فكأنه يخاطب كلكامش عبره بتقنية القناع التي أضفت على النص صورة كلكامشية للشاعر، فهو يستبطن البطل الأسطوري في رحلة البحث عن الخلود، لكن الفارق بين الصورتين، أن الشاعر يدرك مدى صعوبة المهمة على عكس كلكامش، ففي النص شخصية أخرى، تستقي من كلكامش وملحمته فكرة تبحث عن الخلود، والفارق في هذا البحث هو إدراك صعوبة الرحلة وخطورتها، ولهذا عبّر عن ذلك بقوله(وقدامي الصخر/ والسفر الموت)، لكنه لا يحتفظ بصوته وينتقل للقناع الفني فيمتزج بكلكامش ويبوح عبره برحلة البطلين كليهما-بطل الملحمة وبطل الشعر- الذي تمتزج بطولته ببطولة البطل الملحمي ليعبر من خلاله ومن خلال الأجواء التي عاشها في حديثه مع سيدوري، فيحاول أن يقف موقفاً مشابهاً لذلك الموقف مع امرأة هي بطبيعة الحال ليست امرأة حانته لكنها رمز لكل محادث للبطل الملحمي عن سيره للبحث عن سر خلوده، يقول:

(٣)
يا امرأةَ الحانةِ
أيُّ الأسفارِ سأهبطُ فيها
أيُّ الطوفاناتِ ستملأني
أيّ نبيّ أحمقٍ هذا الطفلُ المسحورُ بجنّاتِ الوهمِ
وآياتِ الخمرِ
وأجراسِ الأبراجِ

يخلق الشاعر بالإستناد الى الملحمة حواراً متخيّلاً، يتجاوز فيه البعد الزمني، ليسقط أحداث الملحمة على زمنه الآني، والشاعر إذ يستغل النصف الإله من البطل الأسطوري، فانه يوظف قداسة هذا النصف وما يستلزم خلوده المفترض، لكنه يخرج عن هذا الحيّز إلى حيّز النتيجة الصادمة حين يعبّر عن الرغبة بالخلود بالوهم بلحاظ لفظة(جنات) الدالة عليه، وعلى هذا فالشاعر بفعل استبطان شخصية البطل، يقلب الأدوار بين البطل الأسطوري وصاحبة الحانة، ثم يناديها مصرحاً بوجهتِهِ وهدفِه:

يا امرأةَ الحانةِ
إني أسعى لنشيدِ الأبديةِ
أبني طوفاني لأغيّر طوفانكِ

يسبغ الشاعر على هذا الحدث الأسطوري في الملحمة فكرته الخاصة عن رحلة البحث عن الخلود، فيجعل دفع ما سيكون أمراً منشوداً، من دون أن يكون الخلود المادي حاضراً فيما يريده، ولعل تعبيره عن الأبدية/ الخلود بالنشيد، إنما أراد الخلود المعنوي، فاستعمل لفظة (نشيد) ليكون حضوره صوتياً فقط، فيستقي حدثاً من أحداث الملحمة وهو الطوفان الذي يسعى لبنائه مجازاً.

ويستوحي طارق حربي في نصه (المطلق)[٧] كلكامش من خلال رثاء صديقين له ماتا غرقاً بقوله:

أحاولُ الحياةَ - أريدُ أن أصنعَ هذه «القصيدةَ» من عماءٍ أسودٍ مشوشٍ،
ومن براكينَ ومن سديمٍ
. أحاولُ الحياةَ -
فالأرضُ عماءٌ أسودٌ مشوشٌ قديمٌ.
محضُ رباباتٍ تئنُ والذبولُ مئزرٌ ينضجُ في السماءِ.

[٦] تراتيل بدائية، خليل الاسدي، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٧٩ ٥٨-٦٣.
[٧] الموجة الجديدة (نماذج من الشعر العراقي الحديث ١٩٧٥_١٩٨٦)، اعداد زاهر الجيزاني، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، ١٢٣_١٢٥.

أحاوَل الحياةَ -
أنزعُ جلدَ الحكمةِ - الخشنةِ - يا جلجامشُ الميتُ
في سفوحِ حيةٍ ميتةٍ!
أحاولُ الحياةَ أم أمجّدُ الحياةَ؟!
....
جلجامشُ الحزينُ صوتٌ جافلٌ،
زوادةٌ - قيلَ -
ودمعٌ يابسٌ ينثالُ في الزمانِ.
....
فوقَ ظلالٍ مرةً - أبصرُ:
ذا ظليَّ مهمازٌ وحيزومُ يداي، جلجامشُ، التغيرُ الخفيُّ
والحيةُ والتكوينُ يبكي عشبةً ضائعةً...

يكرر الشاعر عبارته (أحاول الحياة) ليجعلها مدخلاً لاستلهامه الخلود الأسطوري، فيجعلها مقرونة بعمى الأرض/ الكناية عن التخبط والتيه الذي يعاني منه إنسان المرحلة، التخبط الذي يجعل من الموت مهيمناً يخرجه من واقعيته ليدخله نسيج النص، ليتحوّل صوت الربابة أنيناً، والحياة ذبولاً، بالشكل الذي يعمق من تأزيم المشهد، فيتخلقُ حدثٌ شعريٌّ ينفذ الشاعر من خلاله إلى بنية الخلود التي يحاول استلهامها من الملحمة الأسطورية.

يحاول الشاعر التشبث بالحياة/ بالخلود، عبر ألفاظه الدالة عليها(مهماز/ حيزوم) الدالة على الرحيل والبحث، وما يستلزم ذلك من رحلة إفتراضية تتجلى صورتها عبر هذا التشبث، رحلة الخلود الأسطورية التي يستلّها من كلكامش، فوحدة الظلال التي أسبغها الشاعر عليه وعلى بطله الأسطوري، تجعله صورة أخرى منه، ليبحث عن عشبة ضائعة/ عشبة كلكامش، فتمر كل محاولاته الحياة من خلال كلكامش المكرر في نصه مقروناً بعشبته الضائعة التي يفيد منها الشاعر ليعبّر عن ألمه وحزنه على صديقيه، لكنه يعلل عجزه بمحاولات غير نافعة للحياة؛ والحفاظ عليها، لكن ذلك عبثٌ كمحاولات كلكامش الخائبة في بحثه عن خلود زائف يصوره ماجد الحيدر بأنه دون طائل في نصه (وما يزال الوقت سيئا)[٨]:

....
وما يزالُ البطلُ / الإلهْ
كلكامشُ الهائمُ في القِفار
يبحثُ دونَ طائلٍ
عن عشبةِ الخلودْ
ويسلخُ الأيّامَ والسنينَ في السؤالْ
عمّا وراءَ الموتِ والحياةْ
ويطلبُ المحالْ:
أن يرجع الشبابُ
أن يعودْ
أولئكَ الأحبّةُ الماضونَ كالسرابْ..

تحيل بنية العنونة إلى استلهام فني للملحمة، وفكرتها في البحث عن الخلود، فالشاعر عبر خلقه تشكيلاً متوازياً بين العنونة وقوله(ما يزال البطل/الإله)، فإنه يتسلل إلى فكرة النص المستند إلى استلهام ملامح الخلود في الملحمة، لكنه استلهام سلبي، بالإتجاه الذي يجعل من مهمة كلكامش في البحث عن عشبة الخلود والبقاء هدراً للحياة، ولهذا فهو يستعمل الأفعال المضارعة لاستثمار دلالتها على الاستمرار في البحث عن عشبة الخلود، أياماً وليالٍ، فينتهي نهاية كلكامش الهائم في عدم جدوى البحث عن تلك العشبة التي يستوحيها من الملحمة كما يستوحي البطل والإله والحياة والموت الذين لا يرى بدا من الرضوخ لهما، ويصرخ رعد زامل بقوله [٩]:

كلكامشُ: أيّها الجدُّ
لماذا تركتَ الحميرَ
يـخـضـمـونَ عـشـبـةَ الخـلـودِ؟

---

[٨] موقع الحوار المتمدن على الرابط
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=212746
بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٣.

[٩] خسوف الضمير(شعر)، رعد زامل، منشورات الروسم، سلسلة ابداعات عراقية إصدارات اتحاد ادباء وكتاب كربلاء:٦٧-٦٨.

فلينعمْ الحميرُ إذاً
بعشبةِ الجدِّ وللضفادعِ أن تنعمَ
والغرقى بالشخيرِ
ببركةِ الصمتْ

فـ(تقترن (النزعة الكاريكاتيرية) بالسخرية كأسلوب شعري يقرن بالرفض لما هو جارٍ على أرض الواقع من أجل تصحيح مساراته بنحو أو بآخر)[١٠]، يكشف النص عن مدى الإنفعال النفسي المهمين على الشاعر، وهو يجد أنّ ما يجري الآن ليس سوى صورة من صور الموت الذي سعى كلكامش لهزيمته عبر البحث عن عشبة الخلود، فالمعرفة التي جاءت بها الملحمة وهي تجسد سعي الإنسان في البقاء، لم تجد لها حَمَلة يمكنهم النهوض بهذا الإرث الذي خلّفه الجدُّ/ كلكامش، فصارت الحياة موتاً في هذا النص عبر ألفاظه(الغرقى بالشخير/ الصمت)، فهو يجنح الى تمثل الصورة الأخرى من المشهد، من خلال عتاب الشاعر لكلكامش الذي ترك الخلود للحمير التي تخضم عشبة الخلود وتترك الآخرين يفنون فتأتي صرخة الشاعر مستهزئاً بالأمر الذي يقسم قسمة ضيزى بين أصحاب المواهب والعقول والآخرين الذين عبر عنهم بالحمير الخالدة.

ويظهر إنّ استلهام الخلود وعشبته في الشعر الكلكامشي يتفاوت بين الجودة والفتور من حيث قدرة الشعراء على استيحائه بطريقة غنية فنياً من حيث المضمون والشكل والطريقة التي يسلكها الشاعر في العصر الحديث، ومن الشعراء الذين حاولوا استلهام القضية-قضية الخلود- وأجادوا فيها الشاعر ناظم الصرخي في مجموعته الشعرية (عشبة الخلود)[١١]التي يدل مسماها على فحواها، ولا بدَّ من أن يكون هنالك نصٌ في المجموعة يحمل هذه الثريا؛ جرياً على ما جرى عليه الشعراء الآخرون، ونجد ذلك النجاح في التعاطي مع الموضوع بقوله:

يا عشبةَ الحياةِ
(جلجامشُ) الباحثُ عن بارقةِ انبهارٍ
طابَ له المكوثُ فوقَ دجلةَ الخلودِ
وغادرتْ (دلمون) ساحَ أفقِه
وانتأتْ البحارُ

فتصبح العشبة مخاطباً ينتظر كلاماً من الشاعر الذي يؤنسنها وينحرف بها عن تسميتها الملحمية إلى عشبة الحياة، ويصطفّ بحيث اصطفّ كلكامش بعد أن هجر البحث واستقر ببغداد فوق دجلة وغادرت دلمون التي (عرفها السومريون بأرض الفردوس وأرض الخلود والحياة)[١٢]، فانتهت الفكرة كلها بالرضا بالعيش في بغداد وهجرة كلّ ما من شأنه الرحيل والبحث عن خلود وعشبة مزعومة، وهذا مقابلٌ جريءٌ لأصل المعنى الذي عمقه من خلال إضفاء الخلود على دجلة وسلبه عن كلكامش ودلمون.

وتشاكله في ذلك الشاعرة أسماء القاسمي بقصيدتها(البعد عن الخلود القرب من الموت)[١٣]، ولكنها لا تقف موقفاً مشاكلاً كاملاً لسابقها؛ لأنها تتخذ من نفسها (كلكامش) باحثة عن الخلود فتمزج رموز الملحمة: كلكامش، وعشتار، وأنكيدو لتخرج بمعادلٍ معنويٍ عن لهفتها النديّة المرة للخروج من بوتقة الزمن الذي تحس بوطأته فتنادي كلكامش بالقديم وتأخذ أيامه الستة وأمسياته السبعة لتضيف لها يوماً سابعاً من عندها:

بين يديكَ جلجامشُ
أفاقُ السؤالِ العتيد
المعتقُ بالدماءِ وبالقصيدِ
...
سبعةُ أيامٍ تكفي لأخلّدَ
للشعرِ يا جلجامشُ

يشغل كلكامش في النص الشعري مساحة المخاطب، فتحدد الشاعرة الفضاء المكاني لهذا السؤال العميق في مغزاه، فاستعمال الشاعرة للفظة(العتيد) يشي بحجم هذا السؤال وخطورته بنفس الوقت، إنه سؤال يتعلق بالخلود، بالبقاء رغماً على

---

[١٠] قراءة في الاعمال الشعرية الكاملة للشاعر رعد زامل، رياض عبد الواحد ، شبكة المعلومات العالمية(الانترنت) على الرابط https://www.wiraq.com/2021/02/blog-post_682.html بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٣.

[١١] عشبة الخلود(شعر)، ناظم الصرخي، شركة دار الحوراء للطباعة ، بغداد، ٢٠١٤: ١.

[١٢] ينظر: الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ(صلات دلمون بآمورو وبالأموريين) ٢٠٥٠_١٥٣٠ ق.م، مركز الكتاب للنشر ،القاهرة، ١٩٩٧، ١٤٢.

[١٣] صلاة عشتار ، أسماء القاسمي،٣٥.

الموت، وتأتي هذه الدلالة المعمقة حين توظف الشاعرة ثنائية الدم والقصيد، لينتج عنها ثنائية الموت/ الخلود، فالدم كناية عن الموت، والقصيد كناية عن الخلود، وبعبارة أخرى ثنائية الفناء المادي/ الخلود المعنوي، فهي تجعل الخلود كامناً في الحرف/ القصيدة/ الملحمة، وهي وإن كانت لا ترى في الأيام السبعة، وهي الأيام التي قضاها كلكامش في البكاء على أنكيدو، وأعاد بعدها كلكامش رؤيته للخلود، إلا إنها تقرر هذه الحقيقة المستلهمة من الملحمة وخلودها، فالخلود ليس في البحث عن عشبته، إنما في النفاذ عبر الشعر، فهي بهذا تستلهم الخلود الكلكامشي، لتعيد تشكيله وفق رؤيتها الخاصة.

ويسير عبد الكريم راضي جعفر سيراً مشاكلاً ولكن بمحادثة بين كون الخلود وعشبته أمنية كلكامش التي باع الجميع من أجلها، أو أن الجميع باعوه في هذا الزمن الذي لا يبحث عن خلود، ويخلد فيه الشهداء فقط وذلك في قصيدته (أنا أرى كلكامش) [١٤] التي أهداها إلى شهداء الناصرية، ويظهر أنه منذ ثرياه يميل للقول الأول في الملحمة من خلال الفعل(أرى)و(رأيتك) في النص:

أَيُّها المالكُ السومريُّ:
يا صديقي العتيق ..
أ كلكامش:
أنا الذي رأيتكَ ..
تنقشُ في لوحٍ من الماءِ والطينِ،
وجلْدِ غزالٍ،
صوتَ سيّارةٍ مُفخّخةٍ،
وصُراخَ عبوةٍ ناسفةْ،
ونُواحَ امرأةٍ تلبسُ التاجَ
زقّورةً مِنْ بواديَ سومرَ،
معفّرةً بالماسِ، والهورِ،
كنتَ سيّداً، تُفارقُ اللحمَ عنِ الجلْدِ،
وتبحثُ عن عُشبةٍ للخلودْ !!
أنا الذي رأيتكَ،
تبكي،
على طِفلةٍ نَثرتْ أصابعَها
واحداً واحداً ..
تُرتّقها، كما الثوبِ، لكنَّها انتثرتْ،
في رمادٍ، وريحٍ، ونارْ !!
ثمَّ انفطرتَ باكياً ..
فانكفا (انكيدو) حَسيراً،
وبتَّ حزيناً ..

فيخرج كلكامش من لباسه الملحمي وكذلك أنكيدو لتتحول رؤيته إلى تحويل كلكامش من البطل المستنير المستبد إلى البطل الشعبي الذي يشارك شعبه البكاء على مذابحَ طالتهم بالمفخخات التي حصدت أرواحهم الندية وبخاصة الطفلة التي تناثرت أصابعها، لكنه يعود في نصه لبطله الملحمي ليسأله سؤالاً يحير صاحبه:

أكلكامشُ:
بِعْتَنا بعشبةٍ لا تموتْ؟!
أم إنّنا بِعْنا هواكَ، فمتنا جميعاً

يستعمل الشاعر أسلوب الالتفات لانتاج صورته الشعرية الباعثة على التأمل والتجلي، فيتمثلها في فعل تفاعلي، فالفعل (باع) يستلزم مشترياً، الا انه يغيّب هذا الاخر، ويبقي الفعل بوصفه مركز الحدث وثيمته حاضراً، ولعل دلالة الانتقال في (البيع) دلالة تشي بقصدية الشاعر، فالرحلة بوصفها سمة هذا الانتقال تحتم على كلكامش ترك الدولة، فيما يجعل الشاعر فاعلية هذه الدلالة باعثة على دلالة أخرى تفي استلهام الخلود حقه في النص، إذ يذهب بأتجاه التخلي عن المجد الذي حققه كلكامش، وهو يخلق هذه الفكرة العظيمة، ليستقر على خلوده المعنوي، بينما نتجرد نحن عن هذا المجد، لنتيه في جدالنا العقيم، فنصبح حصاداً للموت لا بقاء للحياة.

[١٤] شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://www.azzaman.com/ بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٧

إنّ السؤال الذي طرحه الشاعر، وهو يستجلي ملامح الخلود الكلكامشي، يترك المتلقي في لجة الحدث، باحثاً عن تمثله واستجلائه، ورسم معالمه بالمقارنة بين خلود أسطوري وبين موت واقعي، وبين المفهومين، ثمة استغاثة تشغل البنية العميقة للخلاص من الواقع الذي يهيمن عليه الموت.

وهو الاستلهام الذي يسير عليه أجود مجبل في مجموعته الشعرية (رحلة الولد السومري)[١٥] التي (أيضا التي) يدل مسماها على فحواها، فيستلهم البطل بوصفه مشاركاً في الأحداث الجارية ومهتما بالهمّ الشعبي الذي يحمله الشعب:

إيَّاكَ يا سَوْمَريُّ لغير هواكَ تُشيرْ
فأنتَ الذي قد رأيتْ
وجُبْتَ البلادَ تفتّشُ عن عُشْبَةٍ وسماءٍ وبيتْ
وأرشدْتَ دجلةَ نحو مَصبِّ الفراتْ
وظِلُّكَ بين المصابيحِ
يَشْحَبُ..... يَشْحَبُ..... ثم يَغيبْ "

يقدّم الشاعر بين يدي النص، ملامح الخلود الكلكامشي، وهو يربط بين (العشبة) كدلالة للخلود، وبين دلالة الحياة في (دجلة والفرات)، والشاعر يوظف الرؤية الكلكامشية لتكون مركز هذه العلاقة، فالخلود خرج عن كونه طلباً منشوداً إلى كونه رؤية، تمثلت في إرشاد دجلة الى الالتقاء بالفرات، فيكون هذا الالتقاء، ثمرة هذه الرؤية، فالشاعر يأخذ فكرة كلكامش عن الخلود، ليجعلها رؤية للحياة واستمرارها، فتتمثل في الماء/ الاهوار.

فيظهر ارتباط ثانٍ للخلود بدجلة/الفرات عند الشعراء، وتحضر الطفولة أيضا ويحضر أوروك:

بين الوُعولِ التي أَكَلَتْ عُشْبَها السُّرفاتْ
وطفلٍ بإحدى مَدارسِ (أوروكَ) يبكي،
يضُمُّ أصابعَهُ اللّبنيَّةَ مُنطفِئاً
ثمّ يكتبُ:
ماتَ أبي في الهواءِ الغريبْ "

يستحضر الشاعر عشبة الخلود الكلكامشية فيخلق منها صورة أخرى، منفصلة عن الصورة الأولى، لتخرج من دلالة الخلود الى دلالة الحياة/ النماء، الحياة التي تستهدفها السرفات بوصفها كناية عن الموت، وهو ما يناسب دلالة الطفولة الباكية، التي يجعل الشاعر أصابعها مضمومة كناية عن الهزيمة، وبالنفاذ إلى بنية النص العميقة، فإننا سنجد ما تشي به، كصورة ودلالة موازية، فهو ينسج صوره الشعرية الخاصة عبر استلهام رموز الملحمة، إذ تحيل لفظة (عشبة) إلى كلكامش ورحلته، التي تركت الآخرين يعيثون في المكان، فينهبون خيراته، ويقتلون ابناءه.

وتحضر بلاد الشاعر بهاء الدين الخاقاني في قصيدته(تضج المياه بصوت الصراخ)[١٦]:

وما زالَ كلكامشُ الخلدِ والخضرِ والياسِ
يبنونَ أسوارَ سرّ بلادي
كأنّ سراباً يحيطُ بعالمِنا
أو هو الوهمُ عند فؤادي
ويبقى الطريقُ تواصلَ موتٍ
فما زالَ تنمو وجوهٌ لحجاجَ
عبرَ مواريثِ أبنائِهِ
يشحذونَ صنوفَ المحاريثِ

يجمع الشاعر بين الموروث الأسطوري لفكرة الخلود المتمثل بكلكامش، وبين الموروث الديني والشعبي لها المتمثل بقصة الخضر وشموعه، ووصفها بأنها (سرُ هذه البلاد)، لكنه يقارن بين هذه الفكرة وبين الواقع، بلحاظ (ما يزال) المكررة مرتين بسياقات متناقضة، فيقسم سياقه إلى ثلاث لوحات، تبدأ الأول بكلكامش، ثم ينعطف إلى لوحة أخرى موازية تبدأ بالتشبيه(كأنَّ...)، لتشكل صورة مخالفة، تؤسس للوهم/ للسراب، ثم يعود إلى لوحته الثالثة(فما زال...) التي تشكل صورة مؤسسة على الثانية، لتكشف تناقضات الواقع المعاش، حين يتحوّل الحجاج بإحرامهم إلى شحذ المحاريث، فهو يستعمل المفارقة بين لفظتي(حجاج/ يشحذون)، (يشحذون/ محاريث)، فيستعير فعل الشحذ إلى المحاريث، في إحالة إلى الواقع الذي وصل إليه أحفاد كلكامش.

بهذه اللوحات الثلاث، يوظف الشاعر المفارقة، فتتحول الاسوار الى وهم يحيط البلاد/ القلب، المفارقة بين فكرة الخلود المستلهمة من ملحمة كلكامش كأرثٍ معرفيٍّ خالدٍ، وبين صورة الواقع بـ(شحذ المحاريث).

---

[١٥] رحلة الولد السومري(شعر)، اجود مجبل الخفاجي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠، ١٠.

[١٦] شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://poetsgate.com / بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٧

فتنزع النصوص الشعرية للمجموعة المتقدمة إلى مزج القضية الملحمية بالبلد وأنهاره وأسواره وهمومه التي تهيمن على الاستلهام الكلكامشي، بينما تسير مجموعة أخرى من الشعراء من دون توظيف فعال لرمز الخلود وصاحبه فتمتلأ بالتقريرية والمباشرة كقول إبراهيم أبي زيد في قصيدته (لعبة الورق)[١٧]:

تأكلُ الحياةَ فوقِ اليابسةِ
والأملَ البعيدَ
في الليلةِ السادسةِ
جلجامشُ المسكينُ نامَ
حلَّ الظلامُ والخداعُ
سرقتْ الأفعى...،
نباتاتِ الخلودِ
قد ماتَ فارسُك ماتَ الشجاعُ
هل يرجعُ الخاتمُ ذي الستةِ أضلاعِ؟!!

يوظف الشاعر حدثاً من احداث الملحمة، فيسقط عليه واقعه وخيالاته، ويتمثل الحدث الرئيس في النص بنوم كلكامش وسرقة الأفعى لعشبة الخلود، وخسارته لصديقه أنكيدو، والنص هنا يقدّم حدثاً ملحمياً من دون أن يكون لتقديمه توظيفه فني، تتخلق فيه رؤية الشاعر وأفكاره، أما على مستوى التشكيل الشعري، فقد جاء النص ليقرر أحداثاً ملحمية استلهمها من الملحمة، فتكاد صوره تكون مطابقة لورودها الأسطوري، مما أفقد النص الإفادة من هذه المخزون المعرفي الذي يمكنه شحن النص بعلاقات ودلالات جمالية وإبداعية.

وقول سيف الرحبي في قصيدته (عودة الى الجبال)[١٨]:

لأن جلجامش
لو حدق في مرآتك مرة، ترك البحث عن عشبة الخلود

يقحم النص كلكامش في سياقه من دون أن يكون له توظيف فني، يمكن شحن النص بطاقاته الإيحائية، فجاء النص فقيراً على المستوى الدلالي لرمزية كلكامش، وما يختزنه من قيمة تعبيرية تأريخية وأسطورية.

بهذه الصور الشعرية التي تفاوت بين الجودة والفتور، يستلهم الشعراء فكرة الخلود الكلكامشي في نصوصهم الشعرية، وتنوع التوظيف بين استحضار رمزية كلكامش، أو استحضار عشبة الخلود التي ترتبط به، وقد وجدت النصوص الشعرية في هذه الإستلهام، مساحة من التعبير الفني والتوظيف الجمالي، في ربط المعاني المستلهمة بالواقع عبر المقارنة بين هذه الفكرة التي اشتملت عليها الملحمة، وبين واقع البلد وأبنائه، وهو توظيف يشي بوعي معرفي.

لقد اتضح جلياً، المعاني التي استلهمها الشعراء في توظيفهم للملحمة وشخوصها الأسطورية وأفكارها الجوهرية، وهو ما كشف عن قيمة هذه الملحمة التي شكلّت مرجعاً ثقافياً للعديد من النصوص الشعرية، فقد جاءت ثيمتا البطولة والخلود لتشكّل بعداً ابداعياً من أبعاد التجارب الشعورية في النصوص المدروسة، وهو ما وجد فيه الشعراء مادة غنية بالتعبير عن الواقع وتناقضاته.

المصادر والمراجع

- أشدُّ الهديل(شعر)، باسم فرات ،صهيل للانباء والنشر، القاهرة ، ط٢، ٢٠١٧.
- تراتيل بدائية، خليل الاسدي، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٧٩.
- خريف المآذن (شعر)، باسم فرات، صهيل للأنباء والنشر،القاهرة، ط٢، ٢٠١٧ .
- خسوف الضمير(شعر)، رعد زامل، منشورات الروسم، سلسلة ابداعات عراقية إصدارات اتحاد ادباء وكتاب كربلاء.
- الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ(صلات دلمون بآمورو وبالأموريين) ٢٠٥٠_١٥٣٠ ق.م، مركز الكتاب للنشر ،القاهرة، ١٩٩٧
- رحلة الولد السومري(شعر)، اجود مجبل الخفاجي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠.
- صلاة عشتار، أسماء القاسمي، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٨.
- عشبة الخلود(شعر)، ناظم الصرخي، شركة دار الحوراء للطباعة ، بغداد، ٢٠١٤.
- مخصبات حضور المكان في شعر باسم فرات، د. حسن غانم فضالة الجنابي، والباحثة هديل ياس عبد حمزة، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع٤١، كانون الاول٢٠١٨، ١٦٠٦.

[١٧] شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://poetsgate.com / بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٨

[١٨] شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط http://sh6r.com/poem/45821 https://poetsgate.com بتاريخ ٢٠٢١/٦/١٨

- ملحمة كلكامش، طه باقر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط٤، ١٩٨٠
- الموجة الجديدة (نماذج من الشعر العراقي الحديث ١٩٧٥_١٩٨٦)، اعداد زاهر الجيزاني، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام.
- ملحمة كلكامش النص من فكرة الخلود الى محنة الموت، إبراهيم سبتي، موقع الحوار المتمدن على الرابط https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=65991
- موقع الحوار المتمدن على الرابط https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=212746
- قراءة في الاعمال الشعرية الكاملة للشاعر رعد زامل، رياض عبد الواحد ، شبكة المعلومات العالمية(الانترنت) على الرابط https://www.wiraq.com/2021/02/blog-post_682.html
- شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://www.azzaman.com/
- شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://poetsgate.com /
- شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط https://poetsgate.com /
- شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) على الرابط http://sh6r.com/poem/45821 https://poetsgate.com